مجلة الرائد

العدد : ٢١٣ الموافق في جمادى الثاني ١٤٢٠ هجري ١٠ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : فراغات في مسيرة العمل الإسلامي ٢-٢	بقلم : د. كمال الهلباوي

أما الفراغ الآخر والأخير المذكور هنا ، فهو فراغ قائم في ميدان الإعلام بتقنياته العالية رغم كثرة النشرات والصحف والمجلات ومحطات الإذاعة والتلفاز ، والتي لم تتوافر لها فرص التوسع والانتشار وظلت إمكاناتها قاصرة مقارنة بنظيراتها في العالم الغربي ، ومنها على سبيل المثال مجلة (**Time**) وقناة (**CNN**) وإذاعة الـ (**BBC**) ويشوب العمل في هذا الميدان عند المسلمين ، ما يلي :

* تخلف العمل عن استخدام تقنيات العصر .
* العمل في إطار منهجية النظام الغربي واختراعاته واكتشافاته .
* الروح الاستهلاكية في تصيد الأخبار وبثها وتحليلها
* تراجع الإسلاميين عن العمل في هذا الميدان لما فيه من " نجاسات "

ولا يخفى على عاقل اليوم أن الإرسال الفضائي التلفزيوني – في عصرنا - من أهم ساحات التنافس بين الدول والجماعات ، والإيديولوجيات الفكرية والسياسية والدينية ، من أجل امتلاك النفوذ والقوة. ولا تقل المنافسة هنا أهمية عن التنافس في مجالات النفوذ الاقتصادي والتقدم العلمي وامتلاك الأسلحة المتطورة ، إن لم تفقها .

وما ذلك إلا بسبب ما للإعلام وخاصة المباشر ، من قدرة التسلل إلى مخادع الناس ، والنفاذ إلى قلوبهم ، والتأثير على اتجاهات الرأي العام ، وعلى الأذواق وحركة الأفكار والأسواق ، الأمر الذي غدا معه التفوق الإعلامي الفضائي مقوماً لا غناء عنه من مقومات القوة والتقدم والنفوذ والمكانة في الحال والمستقبل ، ولعل " برنامج الشريعة والحياة " (قناة الجزيرة) في المقام الأول وغيره من البرامج الجيدة الشهيرة في المقام الثاني تعطينا فكرة واضحة عن أهمية هذا الميدان والحاجة إلى تعبئة هذا الفراغ لكثرة المستهلكين وذوي الحاجة والسائلين وقلة أهل الذكر أو التغطية والتعمية عليهم.

لقد سبق الإسلام العصر إلى التنبه على أهمية الإعلام حتى جعله من أهم الوظائف { **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** } [البقرة : ١٤٣] إنها وظيفة الشهادة على الناس من خلال إبلاغهم رسالة الإسلام على أفضل وجه ، " البلاغ المبين " {**كنتم خير أمة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** } [ال عمران : ١١٠]

وما لنا نذهب بعيداً ومعجزة الإسلام الخالدة هي نص إعلامي بديع ، وهي البيان بعينه { **لو أنزلنا**

هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلهم يتفكرون } [الحشر : ٢١] وفي الحديث " إنّ من البيان لسحراً " [أخرجه البخاري وأحمد ومالك والدارمي وأبو داود]

ولقد احتوى القرآن كما احتوت السنة على أنواع شتى من الأساليب الإعلامية التي تظل راسخة في العقل بمجرد الاطلاع عليها.

ومشاهد القيامة في القرآن والتصوير الفني بقلم الشهيد سيد قطب دليل واضح على ذلك ، وقصة سيدنا يوسف عليه السلام مثال قرآني ونموذج عملي لصورة لا يمكن أن ينساها الإنسان العادي بعد قراءتها لأول مرة ولا يسأم الإنسان من قراءتها والاستمتاع بما فيها من آيات وعضات وعلوم ومعرفة نافعة وترويح نظيف.

ويتجلى ضعف الوعي بأهمية الإعلام الحديث خاصة في ضعف الرغبة في تمويله من قبل أهل الخير والمحسنين والمخلصين الراغبين في تقدم الأمة وخروجها من مأزق التخلف. ولقد اتضح جليا - كما ترى كثير من الدراسات ويشهد عليه الواقع المرير- أنه من اليسير إقناع متبرع بالمشاركة في بناء مسجد ومركز إسلامي وملجأ للأيتام ومدرسة لتعليم القرآن أو حتى دعم حركة جهادية ، وكلها ولا شك أبواب للخير ما خلصت النوايا وروعيت الأولويات ، ولكن قلّ من يشمر عن ساعد الجد ويعد العدة عن اقتناع لتمويل إعداد شريط وثائقي عن الآثار الدينية والاجتماعية لمحاربة الحجاب مثلاً في تركيا أو تونس أو عن خطة تجفيف الينابيع الشهيرة التي طبقت في تونس ومنها انتشرت ، أو يدرك أهمية إعداد شريط عن التطبيع في ميدان التعليم والاقتصاد والثقافة ، أو آثار الشيوعية والتبشير في مجتمعات إسلامية معينة ...الخ ، أو يدرك أبعاد دعوى اتهام خير أبناء الأمة بالإرهاب حالياً حتى يخلو الجو لأعدائهم وأصحاب مشروع مدريد وأوسلو وحتى لا تجد الصهيونية عقبة في وجه مشروعاتها العديدة التي تختزنها للمستقبل.

إن غيابنا الإعلامي المريع مقابل حضور القاديانيين والمبشرين غير المسلمين والعلمانيين ، يعود في جزء كبير منه إلى ضعف الوعي بأهمية هذه المهمة من جهاد الكلمة { **وجاهدهم به جهاداً كبيراً** } [الفرقان : ٥٢] وسنظل نعمل تحت راية القرآن وفي ظل شريعة الله تعالى حتى تنزاح الغمة وتقوى الهمة ويأتي الاستبصار ثم النصر من عند الله تعالى.

*** الإحساس بالخطر:**

فـي سـنة ١٩٨٣ شـكل جـورج بينـت ، وزيـر التربيـة الأمريكـي الفـدرالي ، فريقـاً مـن التعليميـين والتربويين من مختلف مراحل التعليم لدراسة متطلبات التميز في التعليم والتفوق العلمي ، والتقرير بشأن هذا الأمر بعدما لاحظ تخلفاً في ميدان الرياضيات والطبيعيات عند طلبة المدارس الثانوية عن أمثالهم في اليابان وألمانيا . ظهر ذلك التقرير ، في أكثر الدول تقدماً ، يحذر من كارثة تكاد تحيق بهم ، وسمي هذا التقرير بـ « أمـة معرضـة للخطـر (A nation at risk) » إن الشعور بـالخطر عند التقدم يعين علـى الحفاظ على ذلك التقدم ، أما الشعور بالاطمئنان وعدم الرغبـة فـي التجديد والتطـوير أو العجز عن ذلك فهو من أسباب التخلف الذي تعيشه الأمة.

لقد دلف العالم المتقدم من خلال مرحلة المؤسساتية الطويلة – بما فيها المؤسسات المتعددة الجنسية والأغـراض- إلـى مرحلـة جديـدة ، هـي مرحلـة العولمـة فكـراً وتخطيطـاً ، ويـسعى حاليـاً إلـى تحقيقهـا وتثبيتها ، إحقاقاً وتنفيذاً ، لتكون أساساً جديداً قوياً ومنطلقاً لمرحلـة استشرافية أخرى وبصور شتى فـي أهم الميـادين الحاكمـة مـن : سياسـية واقتـصادية وأمنيـة واجتماعيـة بـل وعسكرية ، تستخدم فيها أحدث وسـائل التقنيـة الراقيـة والمعلوماتيـة والمنهجيـة البحثيـة والتحليليـة ، انتقـالاً بالـصراع إلـى **مرحلـة الأبـوة العالمية والتبعية المطلقة** ، بحيث يكون للعالم أب واحد متقدم ، يتبعه جميع الأولاد الذين ينبغي أن يظلوا متخلفين عنـه بـدرجات متفاوتـة ، حتـى يـستمتع الأب وحـده بـالقوة والـوفرة وطـول العمـر. يـأمر فيطـاع ويشير فيستجاب له ، ويعرض بضاعته فيشترى منه ، فيقترح فتكون اقتراحاتـه أوامـر . وفوق كل ذلك يظـل مخزنـاً ومـستودعاً للاستـشارات والمعلومـات ، لمـن يريـد ومـن لا يريـد أيـضاً ، أي رغبـة ورهبـة. وبذلك يظل العالم سوقاً له ، وللسلع التـي ينتجها بنفسه أو ينتجها غيره وتبـاع عن طريقـه ، بقوة التقنيـة والسلاح والحفاظ على الأمن والاستقرار والحماية من الإرهاب وباستخدام قوى جديدة منها العولمة وقوة الحصار ...الخ.

إنها صورة مفزعة حقاً ومقززة ، وخصوصاً للمسلم الذي ينتمي إلى الأمة الوسط ، صـاحبة الـشهادة علـى النّـاس ، فـإذا بـالآخرين يـشهدون علـى تخلفهـا ، ويفزعـون مـن طبيعتهـا اليـوم ، ومـن عقليتهـا المعاصـرة ، التـي لا تـدعو إلـى البحـث والتأمـل ولا إلـى الإنتـاج ولا إلـى الحـوار ولا إلـى مراعـاة حقـوق الإسلام والدفاع عنها أو السعي لامتلاك وإنتاج تقنية إعلامية راقية ، فأصيبوا في كرامتهم وأصـبحوا فـي واد وعقيدتهم التي تدعو للإنتاج وقرآنهم الذي يدعوهم إلـى العمـل ويحثهم علـى التفكير والتأمـل فـي واد

آخر ، رغم أنهم يقرأون في القرآن صباح مساء :

{ **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا** } [الإسراء : ١٢]

كيف تكون النظرة إلى الآيات التي محيت والمبصرة؟ وكيف يكون ابتغاء الفضل ؟ ومن ذا الذي تعلم – في العصر الحديث - في الأمة عدد السنين والحساب ، وازداد علمه يوماً بعد يوم أكثر فأكثر؟ وماذا فهمنا من ابتغاء فضل الله تعالى لنا؟

التخلف في هذا الأمر يوضح جانباً مؤلماً من جوانب حاضر الأمة المتخلفة ، ويدعو أهل الاستبصار لإعمال الفكر ، وتغليب النظر في جميع جوانب حياتنا ، لنبنيها – أي حياتنا- على أسس راسخة ، ومعرفة واضحة ، في العقيدة وفي غيرها من متطلبات ومقتضيات تلك العقيدة ، مع الإحسان في شتى ميادين الحياة.

ولعلنا بهذا الحديث المقتضب نكون قد أعذرنا – من جديد - إلى الله تعالى ، وهو أمر لا ييأس منه إلا القانطون ، ونكون قد سعينا – لو ملأت الأمة والجاليات تلك الفراغات – إلى سد ثغرة مهمة قائمة ، **وتعبئة فراغ يحتاج ملؤه إلى قناعة فكرية ، وشجاعة اجتهادية ترى يُتم الأمة و تحسه ، مثلما تلمس يتم الأفراد ، وتربت على رأس الأمة كما تربت على رأس اليتيم تبتغي من ذلك الأجر** ، وتفرق بين حقيقة الأزمات وكثرة القضايا ، التي تستهلك ما يتبقى من ثروات الأمة ومقدراتها بل من ثباتها وصمودها.

هذه نبذة سريعة قد تثير الألم ، ولكن ينبغي لها أن تستجيش الهمم ، همم البقية الباقية ، ممن فهموا الرسالة ، وقرروا عن إخلاص إحسان العمل ونذروا حياتهم خالصة لله تعالى فضحوا بكل ما هو غال ونفيس في سبيله. وللحديث بقية عندنا وعند الآخرين تطويراً وتنمية وتحسيناً ، والله الموفق .